

الموسيقى زمن الكورونا

[Music in Covid time]

Ridha Mahfoudhi

Assistant Professor, Higher Institute of Arts and Crafts of Gafsa, Tunisia

Copyright © 2021 ISSR Journals. This is an open access article distributed under the **Creative Commons Attribution License**, which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original work is properly cited.

ABSTRACT: In this article we will understand the interaction of music with its environment during a pandemic through three axes. The first axis studies the understanding from a philosophical, ontological and psychological, the effectiveness of music in the realization of our humanity in times of crises, the second axis is articulated at the level of the assimilation of music in an economic framework and the third axis supports music as a healing tool.

KEYWORDS: musicology, confinement, distancing, philosophy, psychology.

ملخص: يتناول مقالنا ضمن فهم تفاعل الموسيقى في ظل ظرفا عالميا فرض فيه التباعد الاجتماعي أفضل وسيلة ناجعة لكبح ما يعبر عنه بفيروس كورونا. فأصبح مصطلح «الحجر الصحي» في طلائع المصطلحات الأكثر تداولاً، حيث استأثر نصيب الأسد في تواصلنا وفي وصلاتنا الغنائية. فإن كانت هذه الجائحة تحمل في ظاهرها حالة بيولوجية عضوية، فإننا لا يمكن فصلها ضمن مختبرات العلوم الإنسانية التي ما فتئت وكل حسب اختصاصه في فهم هذا الوباء الذي اختار الجسد حاضنته، وفي تفاعل هذا الجسد داخل المجتمع. فهناك ما يشير كما ذهب الباحث أحمد خواجه أن هناك «حالة من التوافق بين الجسد وبين الثقافة التي يتحرك ويتفاعل ويتطور ضمن أعرافها هذا الجسد السوي أو غير السوي، المنتشي أو بالعكس المتألم الجريح أو المحتضر وبين المجتمع الذي يحتضن هذه التفاعلات وأحيانا يتأثر بها ليشهد تحولات وتغيرات لا مفر منها». فان تحدثت الرواية على لسان غابريال غارسل ماركيز عن «الحب في زمن الكوليرا»، وتحدثت الفلسفة على لسان الير كامو عن ماهية القدر والوضعية الإنسانية في «زمن الطاعون»، فكيف ستحدث الموزيكولوجيا في خطابا يعد نوعيا عن الموسيقى في «زمن الكورونا»؟ حتى تكون قرائنا منهجية وموضوعية فانه ليس من المنصف أن نتحدث على الموسيقى من داخل الأزمة. لكن من الدواعي التي جعلتنا إلى حد ما نتقصى على مدى تفاعل الموسيقى مع هذه الجائحة، ربما يعود بالأساس لفهم تفاعل الموسيقى زمن جائحة «الكورونا» والتي سنحاول من خلالها تفكيك علاقة الموسيقى التي هي بالأساس خطابا مبهما مع هذه الظاهرة الوبائية. رغم قنامة المشهد فإن التاريخ سيسجل أن العالم قد تكلم موسيقى في فترة ما وفي لحظة ما، ليقول «لغة» صوتية ما، ليست ككل اللغات، وفكرة لحنية ليست ككل الأفكار، قدمت في شكل مشاهد حقيقية ليست ككل المشاهد. فنحن إذن إزاء محاكاة لأزمة اتخذت منها الموسيقى مجالاً لمحاولة تشكيل مشهد فرض فيه التباعد أهم مخرجا لهذه العزلة التي ما من معز لها إلا الأمل.

فكيف تشكل هذا المشهد في ظل هذا التباعد؟

فما حاجة الإنسان في هذا الظرف للموسيقى؟

هل هو هروب من المجهول أم هو بدافع غريزة الحياة عبر التشبث ببصيص يحمل في طياته غدا أفضل؟

هي تساؤلات ستمترج في الإجابة عنها تفاعلات موسيقولوجية لعلنا ندرك من خلالها أهمية هذا الخطاب في التعامل مع أحلك الأزمات.

كلمات دلالية: موسيقى، فيروس كورونا، زمن، أزمة.

1. مقدمة

ذكرنا سالفاً أن دراستنا لا تنضح إلا إذا تخطينا عتبة الأزمة كذلك الحال للدراسات العلمية التي لا تعطي حقائق نهائية وثابتة بخصوص هذا الوباء بل تصل إلى حد التضارب. سنتطرق في المقال إلى فهم مدى تفاعل الموسيقى مع محيطها زمن الجائحة، وذلك على محاور ثلاثة. في المحور الأول سنحاول أن نفهم من زاوية فلسفية انطولوجية سيكولوجية مدى جدوى الموسيقى في تحقيق إنسانيتنا زمن الأزمات، أما المحور الثاني فيتناول ضمن فهم الموسيقى في إطارها الاقتصادي في هذا الظرف والمحور الثالث فيتناول الموسيقى كأداة للعلاج. تتداخل أحيانا هذه المحاور في مجملها لتنتج تفاعلات موسيقولوجية لتبين أن الموسيقى خطاب متعدد التفرعات حيث لا يختمر إلا ضمن خميرة المعرفة.

2. جسد المقال

في هذا الظرف هيمنت فكرة الخوف التي مثلت الهاجس الذي أربك الإنسان حيث يقف عاجزا حيال غدا غامضا، فكانت فكرة ردع الخوف هي السبيل الأمثل لتحقيق الطمأنينة. ففي كل منعطف تاريخيا، أسست الأزمات فيه مقولات وسرديات وجماليات جديدة تحددت ملامحها في التجديد وفي البحث عن سبل أخرى للخروج من كل ما هو نمطي لان الحاجة كما يقال هي أم الاختراع.

ولكن هذا الفيروس دفعنا دفعا للعزلة التي ما فتئت ترتبط أحيانا بالجمال والإبداع وبالصحة العقلية وبالأنحياز على القطيع. ولعل هذا ما يؤكد الباحث أنجيلو كارانفا في ماهية العزلة، فهي ملهمة

لحاسة الجمال حيث يترجمها في "العلاقة التبادلية بين العواطف والفكر، بين الفعل والتأمل" (Caranfa, 2007, p. 113). كما يربطها بتحقيق إنسانيتنا من خلال إشارته إلى أن "فلاسفة غربيين آخرين أمثال أفلاطون وسقراط، يؤمنون بأن الخير المطلق وحتى الجمال المطلق ليسا إلا نتيجتين للعزلة وهما مخلوقان منها وليسا موجودين فيها" (Caranfa, 2007, p. 115). فهل دفعت العزلة بالفرد في فضاء مغلق مجده جاستون باشلار في كتابه "جماليات المكان" إلى الإبداع؟ حيث يقر، بأن "الفضاء يدعو إلى الفعل، وقبل الفعل يكون الخيال مشغولا" (Bachelard, 1964, p. 12). فالإنسان ميلا في طبعه إلى ملئ الصمت وتخصيبه حتى يتسنى له تأثيث الفضاء، في زمن تعطلت فيه حركة الساعة ودقت فيه طبول الفن لتعلن عن زمن مواز لوقت تجلدت كينونته الحسية. ف"بيتهوفن" حين وجد نفسه أصم، كانت الموسيقى الحافز الذي ملئ عزلة و"رياض السنباطي" أثر العزلة والبعد عن الأضواء مما جعل منه أكبر الملحنين تميزا وإبداعا. كذلك الكندي "غلين غولد" إذ لم يكن أكثر إبداعا إلا في عزلة حيث قطع غولد علاقته بالعزف للجمهور منذ 1964 واقتصر على العزف في الأستوديو وحده، وقد كان يختلج بنفسه مع آلة البيانو، أين يجد حريته في التأويل والتفسير. فالإبداع يكمن عنده حين تكون قطعة بين المتلقي والفنان، إذ لا يرى أن "طقسية" الحدث الفني والبعد الجماعي له، قادران على إشراك المتلقي بالعملية الفنية، بل على النقيض من ذلك، كلما زاد عدد المشاركين في فعالية فنية ما، يضاف مزيد من الضبابية والمجهولية على المتلقي الفردي. بهذا، يتحول الأداء الحي إلى آخر ميت، ما دام لن يسمح للمتلقى بإعادة إرسال ما أرسل إليه أصلاً، ذلك أن هذا الأخير كان قد دفع مبلغاً من المال لقاء سماع ما يريد الفنان قوله، ولكن العكس لم يحصل. وفي توكيد وترسيخ لثنائية المتلقي / الفنان التي يدعي الأداء الحي تفتيتها. كما لم ير "غولد" في النظرية الشائعة حول "هالة" العمل الفني، التي تخلقها التفاعلات المتبادلة بين المتلقي والفنان، إلا نوعاً من "الأسطرة" للأداء الحي" (الرواس، 2019).

فان تحدثنا عن العزلة من زاوية الإبداع فكيف تفاعلت المجموعة في زمن فرض فيه وباء كورونا التباعد والانزواء؟

تحت وطأة جائحة "كورونا"، شاهدنا تحولا في شكل العلاقة بين المنتج والمستهلك للمادة الموسيقية تتضح من خلال ما يشهده العالم الافتراضي من زخم أدائي لعروض فنية متنوعة على المنصات الرقمية وخصوصا على الوسائل التواصل الاجتماعي. وقد نرى عروضاً مكثفة سواء لمجموعات أو أفراد ممن لهم القدرة على الأداء وإبراز مواهبهم بشكل أفضل مما كانت عليه قبل الجائحة. فأكثسح هذا البديل دور المسارح والفضاءات الخاصة للعروض الفنية ووسائل الإعلام مما يعد ضريا لدور المؤسساتي أو الحكومي الذي يخضع لمنطق السوق والتجارة ويكرس مبدأ سياسة ثقافية واقتصادية موجهة. فإن غابت الفضاءات المؤهلة للعروض الموسيقية، فقد تشكل فضاء رقمية فسح فيه المجال للعالم أن يتنفس موسيقى. في هذا المجال الرقمي أدلى كل بدوله وبشكل عفويا ليقول موسيقى في ظرفا تعطلت فيه حركة الاحتفالات والمبيعات.

لقد وقفت الموسيقى معلنتا الفرح فاصبحنا نشاهد في ظل حجر الصحي الناس من على شرفات منازلهم تغني وتعزف موسيقى. هكذا أمسى كل واحد عن قصد أو غير قصد فنانا، فخرجت في أنحاء أوروبا موسيقى بيتهوفن وموزارت وفيفالدي وباخ من قاعات الأوبرا إلى الساحات والشوارع لتبعث الأمل بين الناس، وامتدت هذه الظاهرة في أنحاء العالم وفرض التباعد تنظيم حفلات جماعية من خلال منصات رقمية حيث كل عازف ومغني يؤدي وظيفته من منزله بشكل متناغم مع المجموعة. فتشكلت فيديوهات على شائكة فسيفساء نشاهدها على صفحات التواصل الاجتماعي وعلى "اليوتيوب". في سياق آخر ومن خلال المنصات الرقمية، أصبحت تقام الحفلات لأغراض إنسانية وقد "أعلنت مغنية البوب الأميركية ليدي جاغا عن بث تلفزيوني موسيقى عالمي يشارك فيه بول مكارتني وليزو وبيلي إيليش وآخرون؛ لدعم العاملين في الرعاية الصحية الذين يتصدون لتفشى فيروس كورونا المستجد عالميا" (الجزيرة-رويترز، 2020). كما شاهدنا تجارب أخرى من بينها مبادرة «مننا لأجلكم»، أطلقتها الأوركسترا الوطنية الهولندية، وتقوم على تقديم حفل موسيقى افتراضي عبر مواقع التواصل الاجتماعي، شارك فيه تسعة عشرة عازفاً، قدموا مقطوعات للموسيقار الألماني الشهير لودفيغ فان بيتهوفن، من بينها السيمفونية التاسعة، ونشيد الفرح ... (سلمان، 2020).

هل يمكن أن نتطلع لعلاقة جديدة في هذا الظرف بين المنتج والمستهلك؟ هل نضربوا إلى تحرير الفنون من العالم المادي والتحرر من رأسملة كل المجالات الحياتية لتحقيق عيشا كريما يحفظ للإنسان منجزاته الأخلاقية والجمالية؟

لقد تجاوزت الموسيقى الخطاب الروحي الجمالي لتعلن أيضا إمكانية التعامل بيولوجيا مع جائحة كورونا فأصبحنا نتحدث على إمكانية معالجة الفيروس بالموسيقى. فكيف ذلك؟

"في بداية الثمانيات بدأ معهد «MIT» في ولاية ماساتشوستس الأمريكية بالعمل على التحقيق بين أي بيانات وبين الأصوات الموسيقية المجسدة لها والاستفادة من تلك البيانات وتحليلها، وسميت هذه العملية "الصوتية" أو ما يعبر عنه باللغة الفرنسية «Sonification»"

لفهم هذا المبدأ، سنحاول أن نفهم كيفية الاستفادة من الموسيقى لتحديد الأحماض الامينية المسؤولة عن التصاق الفيروس بشكل أفضل، مما يسمح بتطوير أجسام مضادة للفيروس وتشكيل أدوية تغير من بناء مستقبلات الفيروس في الجسم لتغيير وضعها بحيث لا يتمكن الفيروس من الالتصاق بالخلية المستقبلية للجهاز التنفسي. لمزيد فهم هذه العملية فقد تطرقنا لفيديو بث عبر التواصل الاجتماعي للدكتور والباحث في الموسيقى العربية سعد الله أغا القلعة عبر صفحته الخاصة ضمن مشروعه الذي أطلق عليه "موسوعة كتاب الأغاني الثاني" (أغا القلعة، 2020). في هذا الفيديو بين الدكتور سعد الله أغا أنه يمكن ترجمة الحمض الأميني (المشكلة للفيروسات) إلى بصمة موسيقية تميزه من خلال اهتزازاته وذلك باستعمال تقنية الذكاء الاصطناعي. عند التصاق الفيروس مع الخلية المستقبلية للجهاز التنفسي للإنسان، تحدث أصوات خاصة يقع تمثيلها عبر تقنية صوتية تضم أصوات أجراس وأوتار ومزامير شاركت في تجسيد الجوانب المختلفة للبروتين وتختلف نوعية الأصوات لمرحلة ما قبل الالتصاق ولحظة الالتصاق ولما بعد الالتصاق الفيروس مما يمكننا من تحليل الأصوات وتحديد موقع التصاق الفيروس بالمستقبلات وبالتالي تحديد علاج دقيق وفعال. إضافة لدورها في التعامل بيولوجيا مع جائحة كورونا فإن للموسيقى دورا جوهريا كمحفز بيسيولوجي لمواجهة التدايعات النفسية التي خلفها هذا الفيروس ولقد تجلى ذلك من خلال ما ذكرناه سالفًا. فالموسيقى كانت ولا تزال مسكنا روحيا لتراجيديا الإنسان عبر التاريخ، فقد

كانت في وقت ما أشبه بتعزية للشعب الألماني عمّا سماه كارل ماركس "البؤس الألماني" وذلك لقادر تها على ترويض الخوف من العبثية التي تحكم الوجود. لهذا اعتبرها الفيلسوف نيتشه وسيلة للخلاص.

3. الخاتمة

في كل مفصل تاريخي مأساوي كانت الكتابة تنغمس في إعادة النظر في شكلها وفي مطارحاتها في محاولة لفهم غموض المأساة وما تحمله معها من ترسبات وتداعيات. ونحن زمن الكورونا، فإن الموسيقى سعت لتعبر عن ذاتها بشكل ليس كما عهدناه، حيث لعبت الحلول التكنولوجية عاملاً مهماً في ظهور حلول مبتكرة، من خلال وسائل التواصل الاجتماعي مما غير في شكل علاقة الموسيقى بالفرد والمجموعة من خلال تمظهراتها الاجتماعية والاقتصادية والعلمية. فتبتن أن الفن ليس تحدياً، ولا مناسبة اجتماعية لاستعراض العضلات من أي نوع كانت. وليس مجالاً للمنافسة التي تفيض بها العروض الحية بشكل خاص. لقد كان حضور الموسيقى ملفتاً للأنظار وهيمن ربما على الخطابات الأخرى فالعالم في هذه الجائحة، لم يتحدث مسرحاً ولا رسماً وإنما تحدث أساساً موسيقى. نحن اليوم وتحت وطأة هذه الجائحة، وفي ظل هذا الحجر الذي ألزم الإنسان في "جحره"، فمؤكد أن أسئلة جديدة ستطرح غداً أمام الفلسفة والطب والآداب والشعر والسياسة والاقتصاد والدين والفن والأخلاق والقانون، وأنها ستكون شاهداً على العصر و ستدخل الكتابة منطقة جديدة لمسألة الطبيعة والعالم والإنسان.

المراجع العربية

- خواجه (أحمد): "ممارسات وتصوّرات للمرض في المجتمع التونسي المعاصر"، الثقافة الشعبية، العدد 11، البحرين، 2020.
<https://www.folkculturebh.org/ar/?issue=11&page=showarticle&id=72>
- الرّؤاس (لينا): "غلين غولد... عازف البيانو الذي ظهر كسلسلة من الجبال"، صحيفة القدس العربي، لندن، 2019.
<https://www.alaraby.co.uk/%D8%BA%D9%84%D9%8A%D9%86%D8%BA%D9%88%D9%84%D8%AF%D8%B9%D8%A7%D8%B2%D9%81%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%A7%D9%86%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B0%D9%8A%D8%B8%D9%87%D8%B1%D9%83%D8%B3%D9%84%D8%B3%D9%84%D8%A9-%D9%85%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%A8%D8%A7%D9%84>
- رويترز الجزيرة: "برعاية ليدي جاغا.. حفل موسيقي مليء بالنجوم لمساعدة محاربي كورونا"، موقع الكتروني، 2020.
<https://www.aljazeera.net/news/miscellaneous/2020/4/7/%D9%84%D9%8A%D8%AF%D9%8A-%D8%AC%D8%A7%D8%AC%D8%A7-%D8%AA%D8%B9%D9%84%D9%86-%D8%B9%D9%86-%D8%A8%D8%AB-%D9%85%D9%88%D8%B3%D9%8A%D9%82%D9%8A-%D8%B2%D8%A7%D8%AE%D8%B1>
- سلمان(حسن): "باحثون: توقّفوا عن إحصاء الضحايا وحاربوا كورونا بالموسيقى!"، تونس-القدس العربي، 2020.
<https://www.alquds.co.uk/%D8%A8%D8%A7%D8%AD%D8%AB%D9%88%D9%86-%D8%AA%D9%88%D9%82%D9%91%D9%81%D9%88%D8%A7-%D8%B9%D9%86-%D8%A5%D8%AD%D8%B5%D8%A7%D8%A1-%D8%A7%D9%84%D8%B6%D8%AD%D8%A7%D9%8A%D8%A7-%D9%88%D8%AD%D8%A7%D8%B1%D8%A8/>
- أغا القلعة(سعد الله): "هل يمكن أن تسهم الموسيقى في التوصل إلى علاج لفيروس كورونا؟"، كتاب الأغاني الثاني (موسوعة موسيقية عربية رقمية)، 2020.
<https://www.agma-alkalaa.net/archives/28613>

REFERENCES

- [1] Angelo Caranfa, "Lessons of Solitude: The Awakening of Aesthetic Sensibility", Journal of Philosophy Education 41, no. 1, 2007, p. 113. [Online] Available: <https://www.7iber.com/culture/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B2%D9%84%D8%A9%D9%88%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%A7/>.
- [2] Gaston Bachelard, "The Poetics of Space: The Classical Look at How We Experience Intimate Places", Boston: Beacon Press, 1964 [translated version], p 12. [Online] Available: <https://www.7iber.com/culture/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B2%D9%84%D8%A9-%D9%88%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%A7/>